المكلا.. التي نجت

ديسمبر 2025م

حقوق النشر

© جميع الحقوق محفوظة لـ (**مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات**)
يُمنع منعًا باتًا إعادة طباعة أو نشر أو نسخ أو توزيع أو نقل أي جزء من هذه الرواية، ورقيًا أو إلكترونيًا، كليًا أو جزئيًا، أو تخزينها في أي نظام استرجاع معلومات، أو تداولها بأي وسيلة كانت، دون الحصول على إذن خطي مسبق من مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات.
أي استخدام غير مصرح به يُعد مخالفة صريحة لقوانين حقوق الملكية الفكرية والنشر المعمول بها.

صادر عن

مؤسسة

اليوم الثامن للإعلام والدراسات

alyoum8.net

الإهداء

إلى روح الطفلة منار صالح شرارة

التي استُشهدت في التفجير الإرهابي فوق جسر الصين بمدينة المكلا عام 2016،

نهدي هذا العمل، وإلى كل طفل وطفلة نجوا من العنف، وحملوا في ذاكرتهم ما لا يجب أن يحمله الأطفال،

لعلّ الحكاية تكون تذكرة،

ولعلّ الذاكرة تكون حماية.

الناشر

في مدينة ساحلية تعلّمت الصمت أكثر مما ينبغي، تدخل السلطة دون ضجيج، وتُعاد هندسة الحياة اليومية دون إعلان. لا رصاص، لا معارك، فقط تغيّر بطيء في اللغة، وفي الخطوات، وفي طريقة النظر إلى الأشياء.

هذه رواية عن مدينة لا تصرخ، وعن بشر يكتشفون أن النجاة لا تعني دائمًا المقاومة العلنية، بل أحيانًا القدرة على الحفاظ على المعنى وسط الانكسار. عبر شخصيات عادية—نساء، معلمات، طلاب، ورجل بلا وجه—نرافق التحوّل من الخوف إلى التكيّف، ومن التكيّف إلى استعادة النفس.

ليست هذه حكاية انتصار، ولا مرثية هزيمة، بل سرد إنساني عن ما يبقى بعد أن تنسحب الرايات، وما لا يعود، وما يمكن بناؤه من جديد. رواية عن مدينة نجت، لأن ذاكرتها لم تُمحَ.الرواية

تأتي هذه الرواية بوصفها عملًا سرديًا يلتقط لحظة إنسانية شديدة التعقيد في تاريخ مدينة عربية ساحلية، لحظة يتقاطع فيها الخوف مع الصمت، والسلطة مع المجتمع، والذاكرة مع النجاة. لا تسعى الرواية إلى إعادة سرد الوقائع بوصفها أحداثًا سياسية أو عسكرية، بل تذهب أبعد من ذلك، إلى تفكيك الأثر النفسي والاجتماعي الذي تتركه سيطرة العنف المنظّم على حياة الناس اليومية.

تعتمد الرواية على سرد هادئ، متأنٍّ، يمنح المدينة دور الشخصية المركزية، ويجعل من التفاصيل الصغيرة—اللغة، الصمت، الجسد، التعليم، والذاكرة—مفاتيح لفهم التحوّلات الكبرى. لا أبطال خارقين هنا، ولا خطابات مباشرة، بل بشر عاديون يحاولون النجاة دون أن يفقدوا إنسانيتهم.

يمثّل هذا العمل إضافة نوعية إلى الرواية العربية المعاصرة، لما يقدّمه من مقاربة إنسانية عميقة لموضوع العنف والتطرّف، بعيدًا عن التبسيط أو التوظيف الدعائي، وبأسلوب سردي متماسك يحترم القارئ ويثق بقدرته على التأمل والاستنتاج.

مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

الفصل الأول

البحر لا يعرف الرايات

لم تكن المكلا مدينةً تُفكّر كثيرًا في السياسة. كانت تستيقظ على البحر، تمشي بمحاذاته، وتنام وهي تسمع صوته وهو يجرّ الليل خلفه. البحر هنا لم يكن منظرًا، بل عادة يومية، مثل الخبز، مثل السلام العابر بين الغرباء. كل شيء كان يبدو بسيطًا إلى حدّ الاطمئنان، وكأن المدينة اختارت أن تعيش على الهامش، بعيدة عن الضجيج الذي كان يلتهم المدن الأخرى واحدةً تلو الأخرى.

في الصباحات، كان الصيادون يعودون قبل أن تشتدّ الشمس، يفرغون شباكهم ببطء، كأنهم يخشون إيقاظ المدينة. المقاهي الصغيرة تفتح أبوابها على مهل، والروائح تختلط: قهوة، ملح، ديزل القوارب. لا أحد كان يسأل عن الغد، فالغد يشبه اليوم، واليوم يشبه الأمس. هكذا اعتادت المكلا أن تطمئن نفسها.

لكن الطمأنينة، حين تطول، تصبح هشّة.

كانت الإشارات الأولى خافتة، لا تلفت الانتباه. كلمات تتغيّر في الأحاديث، وجوه تُطيل الصمت أكثر من اللازم، أسئلة تُؤجَّل بلا سبب واضح. لم يكن الخوف قد دخل المدينة بعد، لكنه كان يجرّ ظله خلفه، يمرّ سريعًا ثم يختفي، كما لو أنه يختبر المكان فقط.

في الأزقة القريبة من البحر، ظلّ الأطفال يلعبون كما لو أن شيئًا لن يتغيّر. كانت أصواتهم ترتطم بالجدران وتعود ضحكات، وكان الكبار ينظرون إليهم نظرةً قصيرة، ثم يصرفون أبصارهم، كأنهم لا يريدون الاعتراف بأن هذه الضحكات نفسها يمكن أن تصبح ذكرى.

الدولة، التي كانت يومًا ما فكرة بعيدة، بدأت تتراجع خطوة خطوة. لم ترحل فجأة، بل انسحبت بهدوء، مثل شخص يطفئ الضوء ويخرج دون أن يودّع. المكاتب ما زالت مفتوحة، الأختام ما زالت تُستخدم، لكن القرارات صارت أثقل من أن تُتخذ. في هذا الفراغ الصغير، الذي لا يُرى، بدأ شيء ما يتكوّن.

البحر وحده ظلّ كما هو. لا يعرف أسماء، ولا يعترف برايات. يفتح صدره للجميع، ثم يعود ليغلقه في المساء، غير معنيّ بما يحدث على اليابسة. كانت المدينة تنظر إليه كمن يبحث عن إجابة في وجهٍ لا يتكلّم.

في إحدى الأمسيات، حين كانت الشمس تميل ببطء، شعر بعضهم بأن الصمت صار أطول من المعتاد. ليس صمت الليل، بل صمت ما قبل السؤال. لم يكن هناك إنذار، ولا صوت رصاصة، ولا خبر عاجل. فقط إحساس غامض بأن المدينة تقف على حافة شيء لا تعرف اسمه بعد.

لم تكن المكلا تعلم أن البحر سيبقى، وأن كل شيء آخر سيتغيّر.

الفصل الثاني

أصوات لا تُسجَّل

لم تكن الأصوات التي تغيّرت عالية بما يكفي لتُقلق أحدًا. كانت همسات، أو جُمَلًا تُقال ثم تُسحب سريعًا، كأنها لم تُقَل. في البداية، ظنّ الناس أن الأمر مجرّد تعب، أو قلق عابر يرافق الأخبار القادمة من مدن بعيدة. كانت المكلا قد تعلّمت، عبر سنوات طويلة، أن تُبقي المسافة بينها وبين العواصف.

في السوق القديم، حيث تختلط أسماء الأسماك بلهجات الباعة، بدأ الحديث يلتفّ حول نفسه. لا أحد يذكر أسماء، ولا أحد يحدّد اتجاهًا. كلمات مثل "يقولوا"، "سمعت"، "يمكن" صارت تقوم مقام الحقيقة. وحين يُسأل أحدهم عن المصدر، يكتفي بهزّ كتفيه، كأن المعلومة لا تحتاج أصلًا.

ندى كانت تسمع هذه الهمسات أكثر مما تسمع البحر. لم تكن تبحث عنها، لكنها كانت تأتيها وهي تمشي، أو تنتظر دورها في محل الخياطة، أو تجلس قرب النافذة مساءً. كانت تشعر أن الكلمات، حين تُقال همسًا، تصبح أثقل. كأنها لا تريد أن تُسمع، بل أن تُخزَّن في الداخل.

في البيت، تغيّرت طريقة الجلوس. الأحاديث العائلية صارت أقصر، والنقاشات تُختصر قبل أن تبدأ. أحدهم يفتح موضوعًا، فيقاطعه آخر بنظرة. لا أحد قال "اصمت"، لكن الجميع فهم. الصمت، حين يصبح اتفاقًا غير مكتوب، يكون أكثر إلزامًا من الكلام.

في المدرسة، لاحظت سميّة أن الأسئلة صارت أقل. ليس لأن الإجابات غابت، بل لأن الرغبة في السؤال بدأت تتراجع. الطلاب ينظرون إلى السبورة، يكتبون، ثم يمسحون، كأنهم يخشون أن تترك الكلمات أثرًا. لم يكن هناك قرار رسمي، ولا تعميم، لكن الخوف كان قد بدأ يتعلّم لغته الخاصة.

المدينة، في تلك الأيام، لم تكن خائفة بعد، لكنها كانت حذِرة. الفرق بين الخوف والحذر صغير، لكنه حاسم. الحذر يسمح لك أن تراقب، أن تؤجّل، أن تنتظر. الخوف، حين يأتي، لا يترك لك هذا الهامش.

في المقاهي القريبة من البحر، ظلّ الرجال يتحدثون عن الصيد، عن الأسعار، عن الطقس. لكن السياسة، التي كانت تُذكر عرضًا، صارت تُستبدل بإشارات مبهمة. أحدهم يضحك حين تُذكر كلمة "أمن"، ضحكة قصيرة، بلا معنى واضح. آخر يغيّر الموضوع بسرعة، كأن الكلمة نفسها قد تسمع.

كان هناك شعور عام بأن شيئًا ما يُكتب، لكن ليس على الورق. كأن المدينة دخلت دفترًا لا تُرى صفحاته، تُدوَّن فيه التفاصيل الصغيرة التي لا ينتبه لها أحد، لكنها ستصبح لاحقًا أدلّة.

في الليل، حين يهدأ كل شيء، كانت الأصوات التي لا تُسجَّل تخرج من مخابئها. طرقات بعيدة، حركة سيارات غير مألوفة، صمت أطول من اللازم بين صوت وآخر. لم يكن هناك ما يمكن الإمساك به، ومع ذلك، لم يكن بالإمكان تجاهله.

البحر، كعادته، لم يتدخّل. كان يواصل حركته، مدًّا وجزرًا، كأنه يذكّر المدينة بأن الزمن لا ينتظر أحدًا. وحدها المكلا بدأت تشعر أن الوقت لم يعد كما كان، وأن الأيام القادمة قد لا تشبه تلك التي اعتادت أن تعيشها دون أن تنتبه.

في تلك اللحظة، لم يكن أحد يعرف أن هذه الأصوات، التي لا تُسجَّل، ستصبح لاحقًا أعلى من أي رصاصة.

الفصل الثالث

الدولة التي تتراجع خطوة خطوة

لم تغادر الدولة المكلا في يوم واحد. لم تُغلق الأبواب، ولم تُنزل اللافتات، ولم تُعلن انسحابها. كل ما فعلته أنها بدأت تتأخر. التأخير، حين يتكرر، يتحوّل إلى عادة، وحين يُعتاد، يصبح غيابًا كاملًا لا يحتاج إلى تفسير.

في المبنى الإداري القريب من الساحل، ظلّ العلم مرفوعًا كما هو. الأختام محفوظة في الأدراج، والملفات مصطفّة بعناية، كأن أحدًا سيعود في أي لحظة. لكن الموظفين صاروا يصلون متأخرين، ثم لا يصلون. القرارات تُكتب، ثم تُعلّق، ثم تُنسى. كل شيء موجود، ولا شيء يعمل.

كان الناس يدخلون المكاتب وهم يعرفون النتيجة مسبقًا. يُقدّمون طلبًا، فيُقال لهم "ارجعوا بكرة". يعودون في الغد، فيُقال لهم "الأسبوع القادم". لا أحد يرفض صراحة، ولا أحد يوافق. الرفض الصريح يحتاج شجاعة، والموافقة تحتاج مسؤولية. أما التأجيل، فهو المنطقة الآمنة للجميع.

في مركز الشرطة، تغيّر الإيقاع. الدوريات أقل، والأسئلة أكثر. الشرطي الذي كان يعرف أسماء الناس صار يكتفي بالنظر إليهم من بعيد. ليس خوفًا منهم، بل من شيء آخر لا يستطيع تسميته. السلاح موجود، لكنه صار أثقل من المعتاد، كأنه يسأل حامله إن كان يعرف لماذا يحمله.

في الشارع، بدأ الناس يتعلّمون لغة جديدة. لغة تعتمد على التقدير، لا على القانون. من هذا؟ إلى من ينتمي؟ من يقف خلفه؟ الأسئلة لم تعد تُطرح بصوت عالٍ، لكنها أصبحت جزءًا من أي حركة بسيطة: فتح محل، إغلاقه، السفر، البقاء.

ندى لاحظت ذلك في تفاصيل صغيرة. الكهرباء تنقطع أكثر، ثم تعود بلا اعتذار. المياه تتأخر، ثم تأتي فجأة، كأنها ضيف غير متوقع. كل شيء صار يعتمد على المزاج، لا على النظام. وحين يغيب النظام، يبدأ الناس في بناء نظمهم الخاصة، مهما كانت هشة.

في المساء، حين تجتمع العائلة، كان الحديث عن الدولة يمرّ سريعًا، كأنه ذكرى غير مريحة. أحدهم يقول: "ما عاد في دولة"، ثم يضحك ليخفف وطأة الجملة. الضحك هنا ليس سخرية، بل محاولة يائسة لجعل الغياب أقل فداحة.

لم يكن الانهيار دراميًا. لم تسقط الجدران، ولم تُسمع أصوات انفجار. الانهيار جاء على هيئة تعب. تعب في الوجوه، في الخطوات، في الانتظار الطويل. الدولة لم تُهزم، بل استسلمت للثقل، وتركت الناس يواجهون الفراغ وحدهم.

في هذا الفراغ، لم يظهر البديل بعد. لكن الفراغ، بطبيعته، لا يحب أن يبقى فارغًا. كان يتمدّد ببطء، يختبر الحدود، يراقب ردود الفعل. وكلما طال الصمت، اتسعت المساحة.

البحر ظلّ في مكانه. الميناء يعمل بنصف طاقته، والسفن تأتي وتذهب، غير معنية بما يحدث على اليابسة. البحر لا يحتاج دولة ليكون بحرًا، لكن المدينة كانت تكتشف، متأخرة، أنها تحتاج دولة لتبقى مدينة.

في تلك الأيام، لم يكن السقوط قد حدث بعد. لكن كل شروطه كانت تُرتّب بهدوء، دون استعجال، كما لو أن أحدًا ما ينتظر اللحظة المناسبة فقط.

الفصل الرابع

اليوم الذي لم يُطلق فيه أحد رصاصة

جاء ذلك اليوم عاديًا على نحوٍ مريب. الشمس طلعت في موعدها، والبحر لم يغيّر مزاجه، والمدينة استيقظت كما اعتادت، دون أن تعرف أنها ستنام مساءً مدينة أخرى. لم يكن هناك إنذار، ولا بيان، ولا صوت انفجار يعلن أن شيئًا ما قد انتهى. كل ما كان موجودًا هو إحساس ثقيل بأن الهواء نفسه صار أبطأ.

في الصباح، فتح بعض أصحاب المحال أبوابهم ثم أغلقوها بسرعة، بلا سبب واضح. آخرون فتحوا وبقوا واقفين عند العتبة، يراقبون الشارع أكثر مما يراقبون الزبائن. كانت الحركة أقل من المعتاد، لكن ليس إلى درجة الغياب. المدينة بدت وكأنها تحاول أن تتصرّف طبيعيًا، كمن يخفي ارتجاف يده بوضعها في الجيب.

الأخبار انتشرت بلا صوت. لا أحد قال "سقطت المدينة"، ولا أحد قال "دخلوا". الكلمات الكبيرة لم تُستخدم. بدلًا عنها، انتقلت جُمَل قصيرة من فم إلى فم: "شافوهم"، "في نقاط"، "ما في مقاومة". الجملة الأخيرة كانت الأكثر غرابة، لأنها قيلت بلا غضب، فقط بدهشة.

في الطرقات المؤدية إلى المرافق الرسمية، لم يقف أحد. لا حراسة، ولا أوامر، ولا اشتباك. الجنود الذين كانوا هناك بالأمس لم يختفوا، لكنهم لم يعودوا جزءًا من المشهد. بعضهم خلع بزته، بعضهم وقف متفرجًا، وبعضهم قرر أن اليوم ليس يومه. لم يكن ذلك هروبًا، بل انسحابًا صامتًا من قصة لم يعودوا يعرفون دورهم فيها.

ندى كانت في البيت حين سمعت أول تأكيد غير مباشر. طرق خفيف على الباب، جارة تقول بصوت منخفض إن الأفضل عدم الخروج. لم تقل لماذا، ولم يكن عليها أن تفعل. السبب كان حاضرًا في نبرة الصوت، في السرعة التي أُغلِق بها الباب بعد الجملة، كأن الكلمات نفسها خطرة.

في منتصف النهار، بدا أن المدينة قد اتفقت على شيء واحد: التزام البيوت. الشوارع لم تُغلق رسميًا، لكنها فرغت من تلقاء نفسها. هذا النوع من الفراغ كان مختلفًا عن كل ما عرفته المكلا من قبل. فراغ لا تصنعه القوة، بل القناعة بأن الخروج الآن لا معنى له.

لم تُطلق رصاصة واحدة، ومع ذلك، شعر كثيرون أنهم خسروا شيئًا لا يُستعاد بسهولة. الخسارة هنا لم تكن أرضًا أو مبنى، بل فكرة. فكرة أن هناك من سيقف إذا لزم الأمر. فكرة أن الصوت، مهما كان ضعيفًا، يمكن أن يجد صدى.

في المساء، حين بدأت الأخبار تتأكد، لم يكن هناك ذعر جماعي. الذعر يحتاج صدمة، وهذه المدينة لم تُصدم، بل أُفرغت ببطء. جلس الناس أمام شاشاتهم، ثم أطفأوها. لا أحد كان يريد أن يسمع التفاصيل. التفاصيل ستأتي لاحقًا، ولا حاجة لاستقبالها الآن.

البحر، كعادته، لم يعلّق. الموج كان ثابتًا، والقوارب مربوطة في أماكنها. وحدها اليابسة تغيّرت، دون أن تُعلن ذلك رسميًا.

في تلك الليلة، نامت المكلا دون أصوات رصاص، ودون صراخ، ودون مقاومة تُذكَر. لكنها نامت وهي تعرف، في أعماقها، أن الصمت أحيانًا يكون أعلى من أي معركة.

الفصل الخامس

حين دخل الظل المدينة

لم يدخلوا دفعة واحدة. لم يملأوا الشوارع، ولم يرفعوا أصواتهم. دخلوا كما يدخل الظل عند الغروب، دون أن ينتبه له أحد في البداية. كانت العلامة الأولى غياب شيء مألوف، لا حضور شيء جديد. غياب الوجوه التي اعتاد الناس رؤيتها في المفارق، غياب الأسئلة المعتادة، غياب الإحساس بأن هناك من يراقب لصالحهم.

في الصباح التالي، ظهرت نقاط لم تكن موجودة بالأمس. رجال يقفون بهدوء، لا يلوّحون بأسلحتهم، ولا يوقفون أحدًا بلا سبب. نظراتهم ثابتة، كأنهم يعرفون المكان أكثر من أهله. لم يُسأل الناس عن أسمائهم، لكنهم شعروا، للمرة الأولى، أن أسماءهم قد صارت عبئًا.

المدينة لم تُعلن الخضوع، لكنها تصرّفت كمن يريد أن يتجنّب المواجهة. المحال فتحت نصف فتحاتها، ثم أغلقتها قبل الظهيرة. المدارس لم تُغلق رسميًا، لكن الأهالي قرروا إبقاء أطفالهم في البيوت. القرار لم يُتخذ في اجتماع، بل انتقل كعدوى صامتة من بيت إلى بيت.

ندى خرجت لشراء حاجيات سريعة، ثم عادت قبل أن تُكمل القائمة. في الطريق، لاحظت أن الخطوات صارت أسرع، والعيون أقل فضولًا. لا أحد يحدّق، ولا أحد يبتسم. المدينة التي كانت تعرف الوجوه صارت تتصرّف كما لو أن الغرباء صاروا قاعدة.

في أحد المساجد، تغيّرت نبرة الخطبة. لم يكن التغيير حادًا، لكنه كان محسوبًا. كلمات مثل "الفتنة" و"الطاعة" و"الجماعة" بدأت تحلّ محل حديث الأخلاق واليوميات. الخطبة لم تأمر، لكنها لم تترك مجالًا للتفكير. هذا النوع من الكلام لا يفرض نفسه بالقوة، بل يزرع الشك في أي اعتراض محتمل.

في المساء، انتشرت قصص صغيرة. رجل نُصح بعدم تشغيل الموسيقى. شاب طُلب منه أن يُقصّر ثوبه. امرأة قيل لها، بلطف، إن خروجها وحدها في هذا الوقت "غير مناسب". لم يكن هناك تهديد، لكن النصيحة، حين تأتي من شخص يحمل سلاحًا، تفقد براءتها.

المدينة بدأت تتعلّم القواعد الجديدة، رغم أن أحدًا لم يكتبها. القواعد هنا لم تكن قوانين، بل إشارات. من يفهم الإشارة يعيش يومه بهدوء، ومن يتجاهلها يلفت الانتباه، والمدينة لم تعد تحتمل لفت الانتباه.

في الليل، بدا الصمت مختلفًا. لم يعد صمت الراحة، بل صمت المراقبة. حتى البيوت، التي كانت تحمي ساكنيها، صارت تشعر بثقل الجدران. الأحاديث تُقال همسًا، والضحك يُؤجَّل، والنوافذ تُغلق مبكرًا، كأن الليل لم يعد وقتًا آمنًا للانفتاح.

البحر، مرة أخرى، ظلّ خارج المعادلة. أمواجه كانت أقرب من أي وقت، لكن الاقتراب منه صار مخاطرة. الصيادون، الذين يعرفون البحر أكثر من أي أحد، بدأوا يترددون. ليس خوفًا من الموج، بل من اليابسة التي تغيّرت قوانينها.

لم يُعلن أحد أن المدينة باتت تحت حكم جديد. الإعلان لم يكن ضروريًا. الحكم، في تلك المرحلة، كان يُمارَس عبر التفاصيل، عبر التغيير البطيء في السلوك، عبر جعل الناس يراقبون أنفسهم قبل أن يراقبهم أحد.

في تلك الأيام الأولى، لم يكن الظل ثقيلًا بعد. كان يختبر مكانه، يتأكد من أنه مقبول، أو على الأقل غير مرفوض. والمدينة، المتعبة من الغياب الطويل للدولة، لم تكن مستعدة بعد لتقول لا.

الفصل السادس

الرايات السوداء لا تصرخ

لم تكن الرايات السوداء بحاجة إلى أن تصرخ كي تُسمِع. كانت موجودة بما يكفي، ثابتة بما يكفي، صامتة بما يكفي لتُفهِم المدينة أن الصوت لم يعد ضروريًا. حين تُرفَع الراية دون ضجيج، فهذا يعني أن الاعتراض لم يعد متوقعًا.

في الأيام الأولى، بدا كل شيء منضبطًا أكثر مما ينبغي. الشوارع نظيفة على نحوٍ غريب، الحركة أقل لكنها منظمة، والوجوه التي تقف عند المفارق تؤدي دورها بلا استفزاز. هذا النوع من النظام أربك الناس أكثر مما طمأنهم. الفوضى يمكن فهمها، أما النظام القادم من جهة مجهولة فيحمل دائمًا سؤالًا مؤجَّلًا.

الناس تعلّموا بسرعة ما الذي يجب تجنّبه. لا موسيقى في السيارات، لا ضحك مرتفع، لا نقاشات طويلة في الأماكن العامة. لم يكن هناك من يدوّن المخالفات، لكن الجميع كان يعرف أن المخالفة تُسجَّل في مكان ما، حتى لو لم يُعرَف أين.

في أحد الأيام، أُزيلت لافتة محل صغير لأنها تحمل صورة امرأة. لم يُغلَق المحل، ولم يُعاقَب صاحبه. قيل له فقط إن الصورة "غير مناسبة". الكلمة نفسها كانت كافية. صاحب المحل أنزل اللافتة بيديه، وهو يبتسم ابتسامة اعتذار، كأنه هو المخطئ. حين يفعل الناس ذلك بأنفسهم، لا تحتاج السلطة إلى أن تُثبت شيئًا.

ندى شعرت لأول مرة أن جسدها صار محل ملاحظة. ليس لأن أحدًا أوقفها، بل لأن العيون صارت تقيس المسافة بينها وبين المكان. مشيتها تغيّرت دون أن تنتبه. خطواتها صارت أقصر، ورأسها ينخفض قليلًا. لم يكن هذا خضوعًا واعيًا، بل تكيفًا غريزيًا، مثلما يفعل الإنسان حين يمرّ في مكان ضيّق.

في المساجد، لم تعد الخطبة تكتفي بالتلميح. الكلمات صارت أوضح، لكنها ما زالت بلا أسماء. "الطاعة" تُقدَّم بوصفها فضيلة، و"الصبر" بوصفه اختبارًا، و"الاختلاف" بوصفه فتنة. لم يقل أحد إن هذا حرام أو ذاك ممنوع، لكن الجميع خرج وهو يعرف ما الذي يُنتظر منه.

الأطفال كانوا الأسرع في التكيّف. في غياب الأسئلة، تعلّموا الصمت. في غياب اللعب، اخترعوا ألعابًا لا تحتاج ضجيجًا. هذا النوع من التعلّم لا يُدرَّس في المدارس، لكنه يترك أثره طويلًا. الكبار رأوا ذلك، وشعروا بالذنب، لكن الذنب لم يكن كافيًا لكسر القاعدة الجديدة.

في الليل، حين تُغلَق الأبواب، كان الناس يراجعون يومهم بدقة. ماذا قيل؟ ماذا فُعِل؟ هل كان الضحك أعلى من اللازم؟ هل أُغلق الراديو في الوقت المناسب؟ المراجعة اليومية هذه لم تكن خوفًا فقط، بل تدريبًا على الامتثال.

الرايات السوداء لم تكن كثيرة، لكنها كانت واضحة بما يكفي لتذكير الجميع بأن المدينة لم تعد مساحة حيادية. لم تكن تصرخ، لأنها لم تكن بحاجة إلى ذلك. الصمت الذي سبقها، والفراغ الذي مهّد لها، كانا قد أدّيا الجزء الأصعب من المهمة.

البحر، في هذه المرحلة، صار بعيدًا رغم قربه. الاقتراب منه لم يعد عادة يومية، بل قرارًا يحتاج تفكيرًا. حتى الأمواج، التي كانت تمنح المدينة شعورًا بالاستمرارية، صارت تبدو كأنها تنتمي لعالم آخر.

في تلك الأيام، لم يكن أحد يقول إن الحياة توقفت. الحياة استمرت، لكن بنسخة أقل. نسخة مُختصرة، مُراقَبة، ومشروطة. والمدينة، التي كانت تعرف كيف تعيش دون تفكير، بدأت تفكّر في كل تفصيلة، كأن التفكير نفسه صار عبئًا.

الفصل السابع

الخيط الأزرق

لم يكن الخيط الأزرق شيئًا يُذكر في البداية. قطعة رفيعة، بالكاد تُرى، تُستخدم لخياطة أشياء صغيرة لا ينتبه لها أحد. لكنه، مع الوقت، صار علامة. ليس لأن أحدًا قصده كذلك، بل لأن الأشياء البسيطة، حين تُترك وحيدة في زمن القسوة، تكتسب معنى أكبر مما تحتمل.

ندى كانت تحتفظ بالخيط في علبة قديمة، مع أزرار مختلفة الأحجام والألوان. لم تفكر يومًا في فرزه، ولم تحاول أن تعطيه قيمة خاصة. لكنه بقي هناك، أزرق صافيًا، لا يهت، كأنه يرفض أن يختلط بالبقية. حين بدأت المدينة تتغيّر، وجدت نفسها تعود إليه دون سبب واضح، تمسكه بين أصابعها، تشدّه قليلًا، ثم تعيده إلى مكانه.

الخياطة، في تلك الأيام، صارت فعلًا آمنًا. لا صوت لها، لا لفت فيها للانتباه، ولا تحتاج تفسيرًا. النساء جلسن في البيوت، يصلحن ما تمزّق، يضبطن ما اختلّ، كأنهن يحاولن، عبر القماش، إصلاح شيء أكبر لا يُرى. الخيط الأزرق كان حاضرًا في أكثر من بيت، ليس نفسه، لكن اللون نفسه، كأنه اختار أن يظهر حين اختفت الألوان الأخرى.

سميّة لاحظت ذلك في المدرسة. الطالبات صرن يطرزن أطراف دفاترهن بخيوط رفيعة، خطوط صغيرة لا تحمل كلمات. لم يكن أحد يعلّمهن هذا، ولم يكن هناك اتفاق مسبق. فقط حاجة غامضة إلى ترك أثر، إلى القول إن شيئًا ما ما زال تحت السيطرة، ولو على مساحة ضيّقة.

في الشارع، لم يكن الخيط الأزرق مرئيًا. لكنه كان موجودًا في التفاصيل: وشاح، رباط شعر، غرزة غير ضرورية في كمّ ثوب. أشياء لا تُثير الشك، لكنها تمنح من تراها شعورًا خفيفًا بالتماسك. كأن المدينة، التي فقدت لغتها العلنية، اخترعت لغة خفية لا تحتاج صوتًا.

لم يكن هذا تحدّيًا مباشرًا. لم يكن شعارًا، ولا رسالة سياسية. كان أقرب إلى تذكير ذاتي بأن الإنسان لا يُختزل في ما يُفرَض عليه. الخيط الأزرق لم يقل "لا"، لكنه رفض أن يقول "نعم" كاملة.

في إحدى الليالي، جلست ندى تخيط ثوبًا بسيطًا لطفلة من الجيران. لم يكن هناك ما يستدعي اللون الأزرق، لكن يدها ذهبت إليه تلقائيًا. غرزة واحدة، في مكان لا يُرى. حين انتهت، شعرت براحة قصيرة، كأنها أغلقت جملة كانت معلّقة في صدرها.

النساء، دون أن يتفقن، بدأن يفهمن هذا الشعور. لم يتحدّثن عنه، ولم يحاولن شرحه. بعض الأشياء، حين تُقال، تفقد قوتها. الأفضل أن تبقى كما هي: ملموسة، صامتة، وقادرة على الاستمرار.

الخيط الأزرق لم يغيّر شيئًا في ميزان القوة. لم يوقف القمع، ولم يخفّف القواعد. لكنه فعل شيئًا آخر، أكثر عمقًا: منع الانكسار الكامل. في زمن يُراد فيه للجميع أن يكونوا نسخة واحدة، حافظ على اختلاف صغير، لا يُعاقَب عليه، لكنه لا يُمحى.

البحر، في تلك الليلة، كان أكثر زرقة من المعتاد. ندى لاحظت ذلك من نافذتها، وابتسمت ابتسامة خفيفة، بلا سبب واضح. لم تكن تعلم إن كان البحر يعكس السماء، أم أن السماء هي التي تعلّمت لون البحر. كل ما عرفته أن اللون، حين يبقى، يصبح ذاكرة.

وفي مدينة تتعلّم الصمت، كانت الذاكرة أهمّ ما يمكن الحفاظ عليه.

الفصل الثامن

ما الذي يُقال في المساجد

لم يكن التغيير في المساجد مفاجئًا، بل جاء كما تأتي الأشياء التي يُخطَّط لها طويلًا. في البداية، لم يتبدّل الشكل، ولا المكان، ولا حتى الوجوه. السجاد نفسه، الصفوف نفسها، الأصوات ذاتها التي اعتادها الناس. وحدها الكلمات بدأت تتحرّك ببطء، كأنها تغيّر أماكنها داخل الجملة.

الخُطَب صارت أطول، لكن مضمونها أبسط. لم تعد تتحدّث كثيرًا عن الحياة اليومية، عن الجيران، عن الأخلاق الصغيرة التي يعرفها الناس. بدلًا من ذلك، بدأت تتوسّع في مفاهيم عامة، فضفاضة، لا يمكن الاعتراض عليها بسهولة: الطاعة، الجماعة، الفتنة، الابتلاء. كلمات كبيرة، تُلقى بثقة، وتُترك دون شرح.

لم يقل أحد إن ما يحدث خارج المسجد هو الصواب المطلق، لكن الإيحاء كان حاضرًا. الصمت عن الفعل صار فضيلة، والتردّد صار حكمة، والاعتراض صار طريقًا إلى الفوضى. لم يُستخدم اسم التنظيم، ولم تُذكر السياسة مباشرة، لكن الخطاب كان يعرف طريقه إلى العقول.

في الصفوف الخلفية، جلس رجال اعتادوا أن يسألوا، ثم تعلّموا أن يكتفوا بالاستماع. الأسئلة، حين لا تجد مكانًا آمنًا، تنسحب. وحين تنسحب، تترك فراغًا تمتلئ به الإجابات الجاهزة. هذه كانت إحدى أكثر الأدوات فاعلية: تقليل مساحة السؤال، لا فرض الجواب.

النساء كنّ يسمعن الخطبة من خلف الجدران، أو عبر مكبّرات الصوت في البيوت. الكلمات تصل إليهن متأخرة، مشوَّهة قليلًا، لكنها تحمل الأثر نفسه. وحين تعود المرأة إلى بيتها وهي تشعر أن عليها أن تكون أكثر حذرًا، فإن الخطبة تكون قد أدّت وظيفتها دون أن تتدخل في تفاصيل حياتها مباشرة.

سميّة لاحظت هذا التحوّل في المدرسة. الطالبات بدأن يستخدمن مفردات لم تكن شائعة من قبل. جُمَل محفوظة، تُقال بثقة، دون أن يعرفن بالضبط ما تعنيه. حين تُسأل إحداهن عن السبب، تكتفي بالقول: "هكذا قال الشيخ". لم يكن الشيخ حاضرًا، لكنه كان هناك، في اللغة.

في المساء، كان بعض الرجال يناقشون ما سمعوه، لكن النقاش كان حذرًا. ليس خوفًا من العقاب، بل خوفًا من سوء الفهم. الكلمة، حين تُفسَّر خطأ، يمكن أن تُكلّف صاحبها أكثر مما يحتمل. وهكذا، صار النقاش يدور حول الصياغة لا حول الفكرة. كيف نقول؟ لا ماذا نقول.

المساجد، في تلك المرحلة، لم تكن أماكن عبادة فقط، بل مراكز إعادة تشكيل بطيئة للوعي. لم تُفرض هوية جديدة دفعة واحدة، بل أُعيد ترتيب الأولويات. ما كان هامشيًا صار مركزيًا، وما كان بديهيًا صار مشكوكًا فيه.

ندى حضرت إحدى الخُطب ثم عادت إلى بيتها وهي تشعر بثقل غير مألوف. لم يكن الخوف، بل شعور بأن المسافة بين ما تفهمه وما يُقال لها تتّسع. حاولت أن تُعيد الكلمات في رأسها، لكنها وجدت أنها تنزلق، لا تستقر. بعض الخطابات لا تُصمَّم لتُفهَم، بل لتُتَلقّى فقط.

في الخارج، ظلّ كل شيء يبدو هادئًا. لا مظاهرات، لا صدامات، لا احتجاجات. المدينة بدت مطيعة، أو على الأقل متعايشة. لكن تحت هذا الهدوء، كانت اللغة نفسها تتغيّر، ومعها طريقة التفكير، وحدود الممكن.

البحر، كعادته، لم يكن جزءًا من الخطبة. لكنه كان هناك، يسمع كل شيء دون أن يعلّق. ربما لأن البحر يعرف أن الكلمات، مهما بدت قوية، لا تصمد طويلًا أمام الزمن.

في تلك الأيام، تعلّمت المكلا درسًا قاسيًا:

أن السلطة التي تملك اللغة، لا تحتاج دائمًا إلى السلاح.

الفصل التاسع

رجل بلا وجه

لم يكن يحبّ أن يُسأل عن اسمه. الاسم، في نظره، عبء غير ضروري. الوجوه أيضًا كانت عبئًا. كلما قلّ ما يُعرَف عنك، زادت قدرتك على البقاء. هكذا تعلّم، وهكذا عاش. في المدينة، كان مجرّد ظلّ آخر، لا يلفت الانتباه، ولا يطلبه.

جاء إلى المكلا وهو يعرف أنها مختلفة. المدن التي عرفها من قبل كانت تدخل في الصراع سريعًا، ترفع صوتها، ثم تنكسر. هذه المدينة كانت صامتة أكثر من اللازم، وهذا الصمت أربكه. الصمت، حين يطول، لا يعني القبول دائمًا. أحيانًا يعني الانتظار.

كان يؤمن بما يفعل، أو هكذا كان يقول لنفسه. الإيمان هنا لم يكن فكرة واضحة، بل شعورًا بالتماسك. في عالم متفكك، كان التنظيم يمنحه إطارًا، ترتيبًا، معنى جاهزًا لا يحتاج إلى مراجعة يومية. الأسئلة، حين تُفتح، تُتعب. وهو لم يعد يريد التعب.

مع ذلك، لم يكن مطمئنًا بالكامل. في الاجتماعات القصيرة، كان يستمع أكثر مما يتكلم. يراقب الوجوه، يبحث عن شرخ صغير، عن تردّد غير معلن. القوة، كما يعرفها، لا تُقاس بالسلاح وحده، بل بمدى استعداد الناس لتصديقك. والمكلا، رغم هدوئها، لم تكن تُصدّق بسهولة.

كان يعرف أن القمع الصاخب خطأ. رآه يفشل في أماكن أخرى. هنا، الأمر مختلف. المدينة تحتاج إلى أن تُترك تتكيّف، أن تُقنِع نفسها بأن ما يحدث مؤقت، أو ضروري، أو أقل سوءًا من البدائل. هذه القناعة، حين تتشكّل، تحمي السلطة أكثر من أي نقطة تفتيش.

في الليل، حين يخلع سلاحه ويجلس وحده، كان يسمع صوتًا لا يعجبه. ليس صوت الضمير، بل صوت الشك. ماذا بعد؟ ماذا لو طال البقاء؟ التنظيم يعرف كيف يدخل المدن، لكنه لا يعرف دائمًا كيف يخرج منها دون أن يترك أثرًا ثقيلًا.

كان يرى النساء في الشوارع، يعرف أنهنّ لا يتحدّثن، لكنه يشعر أن الصمت الذي يحملنه ليس صمت استسلام. هذا النوع من الصمت لا يُطمئن. الصمت المطيع واضح، أما الصمت الذي يخفي شيئًا، فيحتاج مراقبة دائمة. والمراقبة تُرهِق.

لم يكن يكره المدينة، لكنه لم يحبّها أيضًا. كان يتعامل معها كمساحة اختبار. إذا نجحت هنا، ستنجح في أماكن أخرى. وإذا فشلت، فالفشل لن يُعلَن فورًا. سيتسرّب ببطء، مثل الماء في جدار قديم.

في أحد الأيام، مرّ قرب البحر. لم يقف طويلًا، لكن المنظر أربكه. البحر لا ينتمي لأحد، ولا يخضع لخطاب. للحظة قصيرة، شعر بأن كل ما يفعله مؤقت، وأن المدينة، مهما تغيّرت، ستعود إلى شيء لا يستطيع السيطرة عليه.

طرد الفكرة بسرعة. الأفكار التي لا تخدم الهدف يجب أن تُقصى. هذا ما تعلّمه. ومع ذلك، بقي أثرها عالقًا، مثل صدع صغير في صورة متماسكة.

الرجل بلا وجه لم يكن شريرًا بالمعنى البسيط. ولم يكن بطلًا. كان جزءًا من آلة تعرف كيف تتحرّك، لكنها لا تعرف دائمًا لماذا يجب أن تتوقف. وفي مدينة مثل المكلا، حيث الصمت أثقل من الصراخ، بدأت هذه الآلة تشعر، لأول مرة، بأن حركتها ليست مضمونة إلى النهاية.

الفصل العاشر

النساء لا يصرخن

لم يكن الصراخ خيارًا متاحًا. ليس لأن النساء لم يعرفن كيف يصرخن، بل لأن الصراخ، في مدينة تراقب نفسها، صار فعلًا مكلفًا أكثر مما يحتمل. الصمت، هنا، لم يكن ضعفًا، بل حيلة بقاء.

في البيوت، تغيّر كل شيء دون أن يُقال ذلك صراحة. الجلسات صارت أقصر، والنوافذ تُغلق أبكر، والضحك يُخفَّض تلقائيًا. النساء تعلّمن كيف يُعدّلن الإيقاع اليومي، كيف يُبقين الحياة دائرة، لا خطًا مستقيمًا يمكن كسره. الطبخ، الخياطة، ترتيب الأشياء الصغيرة، كل ذلك صار أكثر انتظامًا، كأن النظام الداخلي هو آخر ما تبقّى من السيطرة.

ندى كانت تلاحظ التغيّر في نفسها قبل أن تراه في الآخرين. صوتها صار أخفض حين تتحدث، خطواتها أكثر حذرًا، نظرتها لا تطيل الوقوف عند الوجوه. لم يكن أحد قد قال لها ما يجب أن تفعل، لكن المدينة كانت تعلّمها، ببطء، كيف تختفي دون أن تغيب.

في الطريق إلى السوق، كانت النساء يمشين متقاربات، دون اتفاق مسبق. القرب هنا لم يكن حماية جسدية، بل شعورًا مؤقتًا بالأمان. الكلمات المتبادلة قصيرة، عملية، بلا تفاصيل. لا أحد يسأل عن أكثر مما يجب، ولا أحد يجيب بأكثر مما يُطلب.

سميّة، في المدرسة، رأت التغيير أوضح. الطالبات لم يعدن يتجادلن كما في السابق. الاختلاف صار خطرًا غير محسوب. حتى الصداقة تغيّرت، صارت أكثر هدوءًا، أقل إعلانًا. الفتيات تعلّمن كيف يُخفين أفكارهن كما يُخفين دفاترهن الخاصة.

في أحد البيوت، جلست امرأة مسنّة تحكي لابنتها عن أيام بعيدة، عن زمن كانت فيه المكلا أكثر انفتاحًا، أكثر ضحكًا. الحكاية لم تكن حنينًا فقط، بل تذكيرًا. الذاكرة، حين تُروى، تُقاوم النسيان. والنساء كنّ يعرفن أن النسيان هو أول ما يُطلب منهن.

لم يكن هناك تنظيم خفي، ولا شبكة نسوية سرّية. المقاومة هنا لم تكن مشروعًا، بل سلوكًا يوميًا. أن تُربّي أبناءك دون أن تُسلمهم الخوف كاملًا. أن تحتفظي بأغنية في رأسك دون أن تُرددِيها. أن تطرزي غرزة زائدة في ثوب لا يحتاجها. أفعال صغيرة، لكنها متراكمة.

في المساء، حين يهدأ كل شيء، كانت النساء يجلسن وحدهن أحيانًا، يُفكّرن في اليوم الذي مضى. ماذا قلن؟ ماذا لم يقلن؟ هل كان الصمت كافيًا؟ هل كان أكثر من اللازم؟ هذه الأسئلة لم تكن تُناقَش، لكنها كانت حاضرة، ثقيلة، وتُعاد كل ليلة.

النساء لا يصرخن، ليس لأنهن لا يشعرن بالألم، بل لأن الصراخ يمنح الخصم ما يريد: اعترافًا علنيًا بالقوة. الصمت، حين يُدار بوعي، يسحب هذا الاعتراف دون مواجهة مباشرة.

البحر، من بعيد، كان يلمع تحت ضوء القمر. بعض النساء كنّ ينظرن إليه من خلف النوافذ، ويشعرن أن هذا اللمعان، البعيد وغير القابل للمس، هو وعد مؤجَّل. وعد بأن ما لا يُقال اليوم، قد يُقال غدًا.

وفي مدينة تتعلّم كيف تعيش تحت الظل، كانت النساء يحملن الضوء دون أن يرفعنَه.

الفصل الحادي عشر

التعليم الذي خاف من الأسئلة

لم يُغلَقَت المدارس، ولم تُعلَّق الدراسة. الأبواب كانت تُفتح في مواعيدها، والطلاب يدخلون كما اعتادوا، لكن شيئًا ما كان ناقصًا. لم يكن النقص في الكتب ولا في المعلمين، بل في الجرأة على السؤال. السؤال، حين يصبح عبئًا، يفقد التعليم روحه دون أن يختفي شكله.

في الصفوف، جلست الطالبات يكتبن أكثر مما يتحدثن. الكلمات تُنقَل من السبورة إلى الدفاتر بدقة، بلا زيادة، بلا ملاحظات جانبية. لم تعد هناك خطوط تحت الجُمل المهمة، ولا تعليقات على الهامش. الهامش نفسه صار مساحة غير آمنة.

سميّة لاحظت ذلك منذ الأسبوع الأول. حين سألت طالبة عن معنى كلمة وردت في النص، ساد صمت قصير. ليس صمت جهل، بل صمت حساب. الطالبة نظرت حولها، ثم أضافت بسرعة: "بس حابة أفهم". الجملة الأخيرة كانت محاولة دفاع، كأن الفهم يحتاج تبريرًا.

المعلمات تعلّمن كيف يُنهين الدرس قبل أن ينفتح باب الأسئلة. ليس خوفًا من الطالبات، بل من العيون التي قد ترى في السؤال ما هو أكثر من فضول. التعليم، في تلك المرحلة، لم يعد عملية تبادل، بل عملية نقل. معرفة تُسلَّم كما هي، دون أن تُمسّ.

في الاستراحة، تغيّرت الأحاديث. لم تعد الطالبات يتجادلن حول الأفكار، بل حول التفاصيل اليومية الآمنة. من أحضرت غداءها؟ من تأخرت؟ من غابت؟ الحديث عن المستقبل صار أقل، كأن التفكير فيه يجرّ قلقًا لا حاجة له.

في البيت، كان الآباء يشجّعون أبناءهم على "التركيز في الدراسة"، لكن التركيز هنا لم يكن يعني الفهم، بل النجاة. أن تنهي العام دون مشاكل، دون ملاحظات، دون أن تُسجَّل عليك فكرة زائدة. التعليم تحوّل إلى مسار عبور، لا مساحة بناء.

ندى، وهي تساعد طفلة على واجبها، شعرت بشيء يشبه الحزن. الطفلة كانت ذكية، سريعة الفهم، لكنها حين واجهت سؤالًا مفتوحًا، توقفت طويلًا. ثم سألت: "إيش أبغى أكتب؟" السؤال لم يكن طلب مساعدة، بل طلب إذن.

الكتب لم تتغير كثيرًا، لكن طريقة قراءتها تغيّرت. النصوص صارت تُقرأ كما تُقرأ التعليمات، لا كما تُقرأ القصص. لا أحد يسأل: لماذا؟ ماذا لو؟ ماذا يعني هذا لنا؟ هذه الأسئلة، حين تُطرَح، تفتح مسارات لا يمكن السيطرة عليها بسهولة.

في نهاية اليوم الدراسي، خرجت الطالبات وهنّ يحملن دفاتر مليئة بالكلمات، ورؤوسًا أخفّ مما ينبغي. المعرفة التي لا تُناقَش، لا تترسّخ. لكنها، في الوقت نفسه، لا تُقاوِم. وهذا بالضبط ما كان مطلوبًا.

المدينة، التي كانت قد تعلّمت الصمت في الشارع، بدأت تتعلّمه في الصفوف أيضًا. الصمت هنا لم يكن غياب صوت، بل غياب تفكير. وهذا النوع من الصمت، حين يستقر، يصنع أجيالًا تعرف كيف تطيع، لكنها تنسى كيف تسأل.

في المساء، حين أُغلِقت الدفاتر، بقي سؤال واحد معلّق في الهواء، لم يكتبه أحد:

ماذا يحدث لمدينة حين يتعلّم أطفالها أن السؤال خطر؟

الفصل الثاني عشر

المدينة تتعلّم الصمت

لم تستيقظ المكلا ذات صباح لتقرّر أن تصمت. الصمت لم يكن قرارًا، بل نتيجة. نتيجة تراكمات صغيرة، تنازلات غير معلنة، وتعلّم بطيء لكيفية العيش بأقل قدر من الاحتكاك. هكذا، دون اتفاق أو بيان، بدأت المدينة تتصرّف كجسد واحد يعرف حدوده الجديدة.

في الشوارع، صار السير أكثر انتظامًا. لا أحد يتوقف طويلًا، ولا أحد يتجادل. الحركة مستمرة، لكن بلا ضجيج. حتى الباعة خفّضوا أصواتهم، كأن النداء على البضاعة صار فعلًا يحتاج إذنًا غير مكتوب. الكلمات تُقال، ثم تُبتلع قبل أن تكبر.

الناس تعلّموا فنّ التقدير. تقدير من يمكن الحديث معه، ومتى، وبأي كلمات. تقدير المسافة بين السؤال والمشكلة، بين الفضول والخطر. هذا التقدير لم يكن حكمة، بل مهارة نجاة. من لا يتقنه، يتعب سريعًا.

في المجالس، تغيّرت المواضيع. السياسة اختفت تقريبًا، أو تحوّلت إلى قصص عن أماكن بعيدة، وأزمنة منتهية. الحديث عن الماضي صار آمنًا أكثر من الحديث عن الحاضر. الماضي لا يُحاسَب، والحاضر مليء بالفخاخ.

حتى المناسبات الاجتماعية تغيّرت. الأعراس صارت أبسط، بلا موسيقى صاخبة، بلا رقص. الحزن أيضًا صار مختصرًا، بلا نواح علني، بلا تجمعات كبيرة. الفرح والحزن، وهما أكثر ما يفضح الحياة، تعلّما كيف يختبئان.

ندى لاحظت أن الناس صاروا ينظرون إلى الأرض أكثر. ليس خجلًا، بل حذرًا. النظر الطويل قد يُفسَّر، والابتسامة الزائدة قد تُساء قراءتها. الوجه، الذي كان وسيلة تواصل، صار واجهة يجب ضبطها.

في الليل، حين تهدأ المدينة، كان الصمت يبدو كأنه يضغط على الجدران. ليس صمت النوم، بل صمت الانتباه. كل صوت صغير يُسمَع بوضوح: باب يُغلَق، خطوة في الممر، همسة خلف نافذة. الأصوات لم تختفِ، لكنها صارت مكبّرة في الوعي.

المدينة، في هذه المرحلة، لم تعد تنتظر الدولة، ولم تعد تعارض السلطة الجديدة. كانت في منطقة وسطى، أخطر من الاثنين. منطقة التكيّف. التكيّف يسمح لك بالبقاء، لكنه يأخذ منك شيئًا في المقابل. يأخذ القدرة على الاعتراض دون أن تشعر.

في أحد الأيام، لاحظ الناس أن كلمة "ليش؟" صارت نادرة. السؤال اختفى من اللغة اليومية، كأنه كلمة قديمة لا تُستخدم. وحين تختفي كلمة، يختفي معها جزء من التفكير.

البحر، من بعيد، ظلّ يصدر صوته المعتاد. لكن حتى هذا الصوت، الذي كان يمنح المدينة إيقاعها، صار خلفية فقط. الناس لم يعودوا يصغون إليه كما في السابق. الانتباه كان موجّهًا إلى الداخل، إلى القواعد غير المكتوبة، إلى ما يجب فعله وما يجب تجنّبه.

المدينة تعلّمت الصمت، لا لأنها اقتنعت به، بل لأنها لم تجد بديلًا آمنًا. الصمت هنا لم يكن قبولًا، لكنه كان اتفاقًا مؤقتًا مع الخوف. اتفاق يعرف الجميع أنه غير قابل للاستمرار، لكنه يُجَدَّد يومًا بعد يوم.

وفي مدينة تعيش على الصمت، بدأت الأسئلة تتراكم في الداخل، تنتظر لحظة لا تعرف متى تأتي، لكنها تعرف أنها آتية.

الفصل الثالث عشر

الأيام العادية جدًا

لم يكن هناك ما يلفت الانتباه في تلك الأيام. وهذا بالضبط ما جعلها خطِرة. الأيام العادية، حين تأتي بعد الخوف، لا تكون عادية أبدًا. تكون تسوية مؤقتة مع واقع لا يُحَبّ، لكنها مقبولة بما يكفي للاستمرار.

استيقظ الناس، ذهبوا إلى أعمالهم، عادوا قبل الغروب. الروتين عاد، أو بدا كأنه عاد. في الظاهر، الحياة تسير. في الداخل، شيء ما متوقف. المدينة تتحرك، لكن دون اتجاه واضح، كقارب ينجرف ببطء دون أن يصطدم بشيء.

في السوق، الأسعار ارتفعت ثم استقرّت. الاستقرار هنا لم يكن راحة، بل تأكيدًا بأن لا أحد سيتدخّل. الناس تعلّموا التكيّف مع القليل، ومع البدائل، ومع فكرة أن "المهم نمشي اليوم". التخطيط للمستقبل صار رفاهية غير مضمونة.

ندى لاحظت أن الأيام تتشابه أكثر مما ينبغي. ليس لأن الأحداث قليلة، بل لأن المشاعر صارت مسطّحة. لا حماس، لا غضب حقيقي، فقط استمرار. هذا النوع من الحياة لا ينهك الجسد، لكنه يُرهق الروح ببطء.

في البيوت، عاد الحديث عن أشياء صغيرة. ماذا نطبخ؟ من يذهب؟ من يعود؟ الأسئلة الكبرى أُجّلت، ليس لأن الإجابة صعبة، بل لأن السؤال نفسه صار عبئًا. الناس فضّلوا أن يعيشوا داخل المساحة الممكنة، مهما كانت ضيقة.

الأطفال بدوا أكثر هدوءًا. ليس هدوء النضج، بل هدوء التكيّف المبكر. اللعب صار أقصر، الضحك أقل انفجارًا. الكبار رأوا ذلك، وشعروا بالقلق، لكن القلق لم يتحوّل إلى فعل. الأيام العادية جدًا لا تُنتج قرارات حاسمة.

في المساء، حين تجتمع العائلة، كان الجميع يتصرّف كأن الأمور تحت السيطرة. هذه المسرحية اليومية لم تُكتَب، لكنها أُدّيت بإتقان. لا أحد يريد أن يكون أول من يعترف بأن ما يحدث ليس طبيعيًا.

المدينة، في تلك المرحلة، بدت مستقرة. وهذا الاستقرار هو ما منح السلطة شعورًا زائفًا بالنجاح. حين يتوقّف الناس عن الاعتراض، يبدو الأمر وكأنه قبول. لكن القبول الحقيقي يحتاج اقتناعًا، لا مجرّد تعب.

في أحد الأيام، سقطت حادثة صغيرة. ليست كبيرة بما يكفي لتكون خبرًا، ولا خطيرة بما يكفي لتُثير مواجهة. لكنها كشفت شيئًا مهمًا: الناس لم يعودوا يثقون بأن "العادي" سيستمر. العادي صار مؤقتًا، هشًّا، وقابلًا للانكسار في أي لحظة.

البحر، في تلك الأيام، بدا أقرب من المعتاد. ربما لأن الناس صاروا يقيسون الزمن بطريقة مختلفة. حين يصبح اليوم طويلًا، تبحث عن شيء ثابت لتتعلّق به. البحر كان ذلك الثبات، حتى وهو بعيد.

الأيام العادية جدًا لم تكن علامة على النجاح، بل على التآكل. التآكل لا يُرى، لكنه يغيّر البنية من الداخل. وحين يكتمل، لا يحتاج إلى دفعة كبيرة كي ينهار.

الفصل الرابع عشر

من لم يحتمل الرحيل

لم يكن الرحيل قرارًا يُتَّخذ فجأة. جاء على هيئة فكرة مؤجَّلة، ثم احتمال، ثم سؤال يُعاد بصيغ مختلفة. بعض الناس حملوه في رؤوسهم أسابيع طويلة قبل أن يجرؤوا على النطق به. الرحيل، في مدينة مثل المكلا، لم يكن حركة جسدية فقط، بل اقتلاعًا داخليًا يصعب تبريره.

الذين غادروا لم يودّعوا كثيرًا. الوداع يلفت الانتباه، ويجعل القرار يبدو نهائيًا أكثر مما يحتمل. خرجوا بهدوء، بحجج عملية: دراسة، علاج، زيارة قصيرة. الجميع كان يعرف أن "القصير" قد يطول، وأن العودة لم تعد مضمونة كما كانت.

في البيوت، بقيت غرف مغلقة. أشياء لم تُنقَل، وملابس لم تُرتَّب، كأن أصحابها أرادوا أن يتركوا لأنفسهم طريقًا للعودة. الفراغ الذي خلّفه الراحلون لم يكن صاخبًا، لكنه كان حاضرًا في التفاصيل: كرسي زائد، صحن لا يُستخدم، صوت غائب في المساء.

ندى رأت الرحيل كخسارة مضاعفة. الذين يغادرون يأخذون معهم جزءًا من الذاكرة الجماعية، ويتركون خلفهم عبئًا إضافيًا على من بقي. البقاء، في هذه المرحلة، لم يكن شجاعة ولا ضعفًا، بل نتيجة حسابات معقّدة لا يراها الخارجون.

بعض من رحلوا شعروا بالذنب. الذنب لأنهم تركوا المدينة، وتركوا أهلها، وتركوا أنفسهم القديمة. وبعض من بقوا شعروا بالمرارة. المرارة لأنهم لم يستطيعوا الرحيل، أو لأنهم اختاروا ألا يفعلوا. كلا الشعورين كانا ثقيلين، ولا أحد كان يملك حق الحكم على الآخر.

المدينة بدأت تنقسم بصمت. ليس انقسامًا سياسيًا واضحًا، بل انقسامًا في الإيقاع. من بقي تعلّم كيف يعيش داخل الحدود الجديدة، ومن رحل حمل المدينة معه كذكرى غير مكتملة. الاثنان كانا يشتركان في شيء واحد: الشعور بأن شيئًا ما انكسر، ولن يعود كما كان.

في المقاهي، صار الحديث عن "فلان سافر" عاديًا. لا حزن معلن، ولا فرح. فقط تسجيل واقعة. الرحيل، حين يتكرّر، يفقد دهشته، لكنه لا يفقد أثره. كل مرة يرحل فيها شخص، يتقلّص المجال قليلًا.

الأطفال الذين غادر آباؤهم سألوا أسئلة بسيطة، ولم يحصلوا على إجابات كاملة. "متى يرجع؟" سؤال يُؤجَّل، ثم يُنسى، ثم يعود بصيغة أخرى. الغياب، حين لا يُشرَح، يتحوّل إلى جزء من التكوين.

البحر، الذي كان نقطة اتصال بالعالم، صار رمزًا للعبور. السفن التي تذهب وتجيء لم تعد مجرد حركة تجارية، بل تذكيرًا بأن الخروج ممكن، لكنه ليس سهلًا. البحر يفتح الطريق، لكنه لا يعد بشيء.

من لم يحتمل الرحيل، لم يكن بالضرورة أقوى. ومن رحل، لم يكن أضعف. المدينة، في تلك المرحلة، كانت تختبر حدود الجميع، وتفرض عليهم اختيارات لا تُشبِههم دائمًا.

ومع كل رحيل، كانت المكلا تزداد هدوءًا، لكنها أيضًا تزداد توترًا. التوازن الهشّ بدأ يميل، ببطء، نحو شيء لا يمكن تجاهله طويلًا.

الفصل الخامس عشر

حين بدأ التنظيم يخاف

لم يكن الخوف جديدًا عليهم، لكنه هذه المرة جاء من مكان غير متوقّع. لم يأتِ من سلاح، ولا من تهديد مباشر، بل من الهدوء نفسه. الهدوء الذي طال أكثر مما ينبغي، والذي لم يتحوّل إلى ولاء كما كان متوقّعًا.

في الاجتماعات القصيرة، بدأ الكلام يدور في حلقات. الأسئلة التي كانت تُقمع في الداخل صارت تظهر على شكل ملاحظات تقنية: لماذا قلّ الحضور؟ لماذا لا يتطوّع أحد؟ لماذا يلتزم الناس بالقواعد دون أن يُظهروا اقتناعًا؟ هذه الأسئلة لم تُطرَح بصوت عالٍ، لكنها كانت حاضرة في العيون.

الرجل بلا وجه لاحظ ذلك أولًا. المدينة لم تُقاوم، لكنها أيضًا لم تنخرط. الامتثال كان كاملًا من الخارج، فارغًا من الداخل. هذا النوع من الامتثال لا يدوم، لأنه لا يصنع أنصارًا، بل منتظرين. والمنتظرون خطرون، لأنهم لا يراهنون عليك.

في الشوارع، لم يعد وجودهم يثير الانتباه. وهذا، بدل أن يكون علامة نجاح، صار مصدر قلق. حين تتوقّف السلطة عن لفت الانتباه، فهذا يعني أنها لم تعد محور التفكير. الناس يعيشون حولها، لا معها. يتكيّفون معها، لا يؤمنون بها.

بدأت القرارات تتشدّد قليلًا، ثم تتراجع. شدّ وجذب غير محسوب. تعليمات تُعطى، ثم تُخفَّف. هذا التردّد كشف شيئًا مهمًا: الثقة الداخلية لم تعد كاملة. التنظيم الذي يعرف كيف يدخل المدن، لم يكن مستعدًا لإدارة مدينة صامتة إلى هذا الحد.

في المساجد، صارت الخُطَب أكثر حدّة. الكلمات التي كانت تُلمِّح بدأت تُصرّح قليلًا. هذا التحوّل لم يكن نتيجة قوة، بل نتيجة قلق. حين تفشل الإيحاءات، يلجأ الخطاب إلى المباشرة. والمباشرة، في بيئة متعبة، تخلق مسافة بدلًا من القرب.

النساء، اللواتي لم يصرخن يومًا، لم يتغيّرن. وهذا ما أربكهم أكثر. الصمت المستمر، غير القابل للكسر، كان علامة على أن السيطرة لم تصل إلى العمق. السيطرة الحقيقية تغيّر الناس من الداخل، لا تكتفي بتعديل سلوكهم.

في الليل، زادت الدوريات. ليس لأنها ضرورية، بل لأنها تطمئن من يقوم بها. السلاح يُحمَل أكثر، والوجوه تصير أشدّ تصلّبًا. القلق، حين لا يجد عدوًا واضحًا، يخلق توترًا داخليًا.

الرجل بلا وجه وقف ذات مساء قرب البحر، أطول مما اعتاد. لم يكن يبحث عن معنى، بل عن إشارة. البحر، كعادته، لم يمنحه شيئًا. فقط حركة مستمرة، لا تخضع لأحد. في تلك اللحظة، فهم أن المدينة لم تعد مساحة اختبار، بل عبئًا.

الخوف، حين ينتقل من الناس إلى السلطة، يغيّر المعادلة. لا يُعلَن ذلك فورًا، ولا يُرى في الأخبار. لكنه يظهر في التفاصيل: في الإفراط، في الشدّة غير الضرورية، في محاولة الإمساك بما لا يُمسَك.

المكلا لم تتحرّك بعد. لكنها لم تعد ساكنة كما كانت. وفي هذا التغيّر الصامت، بدأ التنظيم يفهم أن ما يملكه هو الوقت فقط، وأن الوقت، في مدينة تتذكّر نفسها، لا يعمل دائمًا لصالح من يحكمها.

الفصل السادس عشر

المدينة لم تعد تصدّق

لم يكن هناك حدث واحد يمكن الإشارة إليه بوصفه نقطة التحوّل. لم تسقط لافتة، ولم يُعتقَل شخص معروف، ولم تقع مواجهة تُروى لاحقًا. كل ما حدث أن المدينة، فجأة، توقّفت عن التصديق. والتوقّف عن التصديق، في حد ذاته، فعل خطير.

الناس ما زالوا يلتزمون بالقواعد، لكن الالتزام صار آليًا، بلا معنى. الطاعة التي لا يرافقها اقتناع تفقد قيمتها سريعًا. المدينة كانت تفعل ما يُطلب منها، لكن دون أن تعطي في المقابل أي ولاء. هذا الفراغ بين الفعل والإيمان اتّسع، حتى صار مرئيًا.

في الشارع، لم يعد وجودهم يثير رهبة. لا لأن الخوف اختفى، بل لأن الخوف تغيّر شكله. صار خوفًا بلا مركز، خوفًا عامًا لا يُنسب إلى جهة بعينها. وحين يفقد الخوف مصدره الواضح، يفقد قدرته على الضبط.

الناس بدأوا يلاحظون التناقضات. التعليمات التي تتغيّر، الوجوه التي تختلف في كلامها من يوم إلى آخر، الخطاب الذي يعد بالثبات ويُظهر الارتباك. هذه التفاصيل، التي قد تمرّ عابرة في زمن عادي، صارت ثقيلة في زمن الشك.

ندى شعرت بذلك في أبسط الأشياء. حين قيل لها إن أمرًا ما "غير مسموح"، لم تسأل لماذا، لكنها لم تُقنِع نفسها أيضًا. الامتثال تمّ، لكن داخليًا، كان هناك فراغ. الفراغ أخطر من الرفض، لأنه لا يمكن مواجهته مباشرة.

في المجالس الصغيرة، عاد الناس إلى تبادل النظرات ذات المعنى. لا كلام واضح، لكن الإيماءات عادت. حاجب يُرفَع، صمت يُطيل، جملة تُقال ثم تُسحب. المدينة، التي تعلّمت الصمت، بدأت تستخدمه كسلاح معاكس.

حتى الأطفال التقطوا هذا التغيّر. الأسئلة لم تعد تُطرَح علنًا، لكنها عادت في البيوت. "ليش لازم؟" سؤال يُقال بصوت منخفض، لكنه يُقال. السؤال، حين يعود، يعني أن الخوف لم يعد كافيًا.

في المساجد، لم يعد الخطاب يُنتج الطمأنينة التي كان ينتجها سابقًا. الكلمات الكبيرة صارت تبدو مكرّرة، مستهلكة. التكرار، حين لا يُدعَّم بالفعل، يفضح ضعفه. الناس سمعوا الكلام نفسه كثيرًا، دون أن يروا ما يوازيه في الواقع.

الرجل بلا وجه شعر بهذا التحوّل دون أن يستطيع تحديده. السيطرة ما زالت قائمة، لكن شيئًا ما انكسر. المدينة لم تعد تتجاوب، بل تؤدّي. الفرق بين الأداء والتجاوب كبير، ومن يعرف السلطة يعرف أن الأداء لا يدوم.

البحر، في تلك الأيام، بدا أقرب إلى اليابسة. ربما لأن الناس صاروا يقيسون المسافة بين ما يُقال لهم وما يرونه بأعينهم. البحر لا يكذب، لا يَعِد، ولا يبرّر. وجوده وحده كان كافيًا ليذكّرهم بأن الثبات الحقيقي لا يحتاج خطابًا.

المدينة لم تعد تصدّق. لم تعلن ذلك، ولم تحتفل به. فقط توقّفت عن منح الشرعية المعنوية. وهذا النوع من السقوط يسبق دائمًا السقوط الفعلي، حتى لو طال الزمن بينهما.

الفصل السابع عشر

الرسائل التي لم تصل

في المراحل الأخيرة، لم تكن المشكلة في غياب المعلومات، بل في كثرتها. الرسائل كانت تُرسَل، التقارير تُكتَب، والتنبيهات تُرفع، لكن شيئًا ما كان يتعطّل في الطريق. ليس في الإرسال، بل في الاستقبال. حين لا يريد النظام أن يسمع، تصبح أكثر الرسائل وضوحًا مجرّد ضجيج.

في الداخل، بدأت الأخطاء تتكرر. قرارات تُتَّخذ متأخرة، وأخرى تُتَّخذ مبكرًا أكثر مما ينبغي. التوقيت، الذي كان أحد نقاط القوة، صار مرتبكًا. المدينة تغيّرت، لكن القراءة لم تتغير معها. هذا الفارق الصغير كان كافيًا لإحداث الشرخ.

الرجل بلا وجه كتب ملاحظاته، أو قالها شفهيًا، أو احتفظ بها لنفسه. لم يكن متأكدًا من جدوى قولها. في الأنظمة المغلقة، تُكافأ الطاعة أكثر من الصدق. والصدق، حين لا يجد مكانًا، يتحوّل إلى صمت إضافي يزيد العتمة.

في الشارع، بدأت تظهر تصرّفات لم تكن مألوفة من قبل. تأخير مقصود، التزام شكلي، تنفيذ ناقص. الناس لم يخرقوا القواعد، لكنهم لم يخدموها أيضًا. هذه المنطقة الرمادية كانت مربكة، لأنها لا تمنح مبررًا للعقاب، ولا دليلًا على الولاء.

الرسائل التي لم تصل لم تكن دائمًا مكتوبة. أحيانًا كانت في نظرة جماعية، في سوق يقلّ ازدحامه فجأة، في مسجد لا يمتلئ كما كان. هذه الإشارات، لو قُرِئت جيدًا، لقالت الكثير. لكنها لم تُقرأ، أو قُرِئت بوصفها حالات عابرة.

في إحدى الليالي، صدرت تعليمات متشدّدة أكثر من اللازم. لم تُحدث صدمة، لكنها أحدثت مسافة. المسافة بين السلطة والمجتمع اتّسعت خطوة أخرى. كل خطوة من هذا النوع لم تكن قاتلة وحدها، لكنها كانت تُراكِم النهاية.

ندى شعرت بأن الهواء تغيّر. ليس خوفًا، بل ترقّبًا. المدينة، التي تعلّمت الانتظار طويلًا، بدأت تشعر بأن الانتظار يقترب من نهايته، دون أن تعرف كيف. هذا الإحساس لم يكن واضحًا، لكنه كان مشتركًا، وكفى بذلك.

في المساجد، صار الخطاب أكثر توتّرًا، أقل تماسكًا. الكلمات تُقال بعجلة، كأن الوقت يضغط على المتحدّث أكثر مما يضغط على المستمع. العجلة، في الخطاب، علامة ضعف لا تخطئها الأذن.

الرسائل التي لم تصل لم تكن فقط تحذيرات، بل فرص أيضًا. فرص للتراجع، للتخفيف، لإعادة التقييم. لكن الأنظمة التي تبني قوتها على اليقين المطلق، تجد صعوبة في الاعتراف بالحاجة إلى المراجعة.

البحر، كعادته، كان آخر من يتأثر. لكنه أيضًا كان شاهدًا. السفن التي تمرّ لا تعرف التفاصيل، لكنها تعرف الاتجاه. وحين يتغيّر الاتجاه، حتى لو ببطء، يصبح واضحًا لمن ينظر طويلًا.

في تلك المرحلة، لم يكن السقوط قد حدث بعد. لكن كل ما يمكن أن يمنعه كان قد فُقِد. الرسائل التي لم تصل لم تعد بحاجة إلى أن تصل، لأن المدينة كانت قد بدأت تكتب رسالتها الخاصة، بوسيلة أخرى، وفي وقت آخر.

الفصل الثامن عشر

الليل الأخير

لم يكن الليل مختلفًا في شكله، لكنه كان مختلفًا في ثقله. المدينة نامت، أو تظاهرت بالنوم، كما اعتادت في الشهور الأخيرة. الأضواء خافتة، الشوارع شبه خالية، والبحر يواصل عمله القديم بلا اكتراث. ومع ذلك، كان هناك إحساس عام بأن هذا الليل ليس عابرًا.

في البيوت، لم يُطفئ كثيرون الأنوار كعادتهم. الضوء الخافت كان نوعًا من الطمأنينة المؤقتة، أو ربما استعدادًا لشيء لا يعرفون شكله بعد. الأحاديث كانت قصيرة، متقطّعة، وكأن الكلمات نفسها متعبة. لا أحد قال إن الغد مختلف، لكن الجميع تصرّف كأن عليه أن يكون مستعدًا.

ندى جلست قرب النافذة أكثر من المعتاد. لم تكن تنتظر أحدًا، ولم تكن تعرف ما الذي تراقبه. الشارع بدا ساكنًا، لكن السكون كان مشحونًا، مثل سطح ماء قبل حركة مفاجئة. في هذا النوع من اللحظات، يصبح الانتظار فعلًا جماعيًا، حتى لو عاشه كل فرد وحده.

في الخارج، كانت الحركة محدودة، لكنها موجودة. سيارات تمرّ ثم تختفي، أصوات بعيدة لا يمكن تحديد مصدرها. لا ضجيج، ولا إنذار. فقط تكرار خفيف لإشارات غير مكتملة. المدينة لم تكن خائفة، بل متنبّهة. الانتباه، حين يأتي بعد طول صمت، يرهق أكثر من الخوف.

في أحد البيوت، جلست امرأة مسنّة تراجع ذاكرتها. ليس بدافع الحنين، بل بدافع المقارنة. كانت تعرف هذا الشعور. شعور ما قبل التغيّر. عاشته من قبل، بأشكال مختلفة. التغيّر لا يعلن نفسه، بل يسرّب حضوره في التفاصيل الصغيرة.

الرجل بلا وجه لم ينم. لم يكن هناك ما يستدعي الأرق رسميًا، لكن جسده رفض الراحة. التنظيم، الذي كان يبدو متماسكًا، صار أكثر توتّرًا في الساعات الأخيرة. الأوامر أقل، والانتظار أطول. حين تتوقّف التعليمات، يبدأ القلق.

في المساجد، لم يكن هناك شيء يُقال. حتى الكلمات المعتادة بدت زائدة عن الحاجة. الصمت هنا لم يكن طاعة، بل فراغًا. والفراغ، حين يتكوّن في أماكن اعتادت الامتلاء، يكون علامة.

المدينة، في تلك الليلة، لم تُخرج أحدًا إلى الشوارع، ولم تُخفِ أحدًا في البيوت. الجميع كان في مكانه، لكن المكان نفسه بدا مؤقتًا. كأن الجدران تعرف أنها قد تُستخدَم غدًا لمعنى آخر.

البحر كان أقرب من أي وقت. صوته وصل أوضح، أو ربما الناس هم من أصغوا له أكثر. البحر لا يعد بشيء، لكنه يذكّر بأن الحركة ممكنة، وأن السكون ليس قدرًا دائمًا.

في تلك الساعات الأخيرة، لم يحدث شيء يُذكر. لا اشتباك، لا إعلان، لا تغيير واضح. ومع ذلك، كان كل شيء قد تغيّر بالفعل. المدينة كانت قد أنهت انتظارها الطويل، دون أن تعرف بعد ما الذي ستستقبله.

الليل الأخير لم يكن نهاية، لكنه كان حدًّا فاصلًا. بعده، لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه، حتى لو بدت كذلك في الصباح.

الفصل التاسع عشر

المدينة تفتح نافذتها

لم يكن الصباح صاخبًا. لم تُطلِق المدينة زغرودة جماعية، ولم تخرج إلى الشوارع دفعة واحدة. الفجر جاء عاديًا، كأنه لا يريد أن يلفت الانتباه. لكن شيئًا ما في الهواء كان مختلفًا. أخفّ. أوسع. كأن المدينة أخذت نفسًا طويلًا كانت تحبسه منذ شهور.

أول علامة لم تكن صوتًا، بل حركة. نافذة تُفتح قبل موعدها المعتاد. باب لا يُغلق بسرعة. شخص يقف عند العتبة أطول مما ينبغي. هذه التفاصيل الصغيرة كانت كافية لتأكيد ما لم يُقَل بعد.

في الشارع، لم تختفِ كل الوجوه التي اعتاد الناس رؤيتها، لكنها لم تعد كما كانت. بعض النقاط لم تعد موجودة، وبعضها بدا مهجورًا. السلاح، الذي كان حاضرًا في الوعي أكثر من حضوره في المكان، تراجع خطوة إلى الخلف. ليس انسحابًا دراميًا، بل تآكلًا صامتًا.

ندى خرجت إلى الشارع دون أن تخطّط لذلك. لم ترتدِ شيئًا مختلفًا، ولم تفعل شيئًا استثنائيًا. فقط مشت. المشي نفسه بدا جديدًا. الخطوات لم تكن سريعة، ولا حذرة. كانت طبيعية، كما لو أنها تستعيد ذاكرة قديمة.

الناس بدأوا يظهرون، واحدًا تلو الآخر. لا تجمعات، لا هتافات. مجرد حضور. الحضور، في هذه اللحظة، كان كافيًا. المدينة لم تحتج إلى إعلان، لأنها شعرت بالتغيير في جسدها.

في السوق، فتح بعض الباعة محالهم بالكامل لأول مرة منذ زمن. الأصوات ارتفعت قليلًا، ثم استقرّت. الضحك لم ينفجر، لكنه عاد كاحتمال. هذا النوع من العودة هو الأكثر صدقًا، لأنه لا يبالغ.

في أحد الأزقة، توقّفت امرأة لتنظر إلى السماء. لم تكن تبحث عن شيء محدد، لكنها شعرت بأن المسافة بينها وبينها اتّسعت. السماء، التي كانت ثقيلة، صارت أخفّ. هذا التغيير لم يكن مرئيًا للجميع، لكنه كان ملموسًا لمن عاشوا الاختناق طويلًا.

الرجل بلا وجه لم يكن في المشهد. لم يُقبَض عليه أمام الكاميرات، ولم يختفِ بطريقة درامية. غيابه كان جزءًا من الانسحاب العام. بعض الأشياء، حين تنتهي، لا تحتاج إلى مشهد أخير.

في المساجد، عاد الصوت إلى نبرته القديمة. لا شعارات، لا تعليمات. مجرد كلام عن الحياة، عن الناس، عن اليوم. البساطة هنا كانت إعلانًا بحد ذاتها.

البحر، الذي شاهد كل شيء، بدا أكثر هدوءًا. ليس لأنه تغيّر، بل لأن المدينة عادت إلى الإصغاء إليه. الصيادون اقتربوا، لا دفعة واحدة، لكن بثقة حذرة. البحر لم يسأل أين كانوا، ولم يطلب تفسيرًا.

التحرير، في تلك اللحظة، لم يكن حدثًا عسكريًا في وعي الناس. كان رفعًا لثقل غير مرئي. ثقل الكلمات المبتورة، والخطوات المحسوبة، والنظرات المكسورة. المدينة لم تستعد كل شيء، لكنها استعادَت القدرة على الإحساس.

وفي مدينة تفتح نافذتها لأول مرة منذ زمن، لم يكن الهواء وحده من دخل...

دخلت إمكانية أن تُحكى القصة من جديد.

الفصل العشرون

من بقي ومن لم يعد

لم يكن الغياب أول ما لفت الانتباه، لكنه كان الأثقل. بعد أن فُتحت النوافذ وعاد الهواء، بدأت المدينة تكتشف المساحات الفارغة. أناس لا يظهرون في الشوارع، مقاعد لا تُملأ، أسماء لا تُنادى. التحرير أعاد الحركة، لكنه لم يُعد الجميع.

في البيوت، ظلّت غرف مغلقة كما هي. لم تُفتح احتفالًا، ولم تُغلق حزنًا. الأشياء بقيت في أماكنها، كأن أصحابها سيعودون بعد قليل. هذا النوع من الانتظار لا ينتهي بسهولة، لأنه لا يملك يقينًا ولا خاتمة.

ندى لاحظت ذلك في التفاصيل الصغيرة. امرأة تسأل عن جارتها ثم تصمت. رجل ينظر إلى هاتفه طويلًا، ثم يضعه دون أن يتصل. المدينة بدأت تُحصي خسائرها، لا بالأرقام، بل بالفراغات.

من بقي، بقي لأسباب مختلفة. بعضهم لم يستطع الرحيل، وبعضهم لم يرد. البعض شعر أن البقاء واجب، والبعض الآخر اعتبره مخاطرة محسوبة. لم يكن هناك معيار واحد. التحرير لم يوزّع شهادات شجاعة، ولم يُدين من غاب. فقط كشف المسافات بين الناس وخياراتهم.

في السوق، عاد بعض الوجوه القديمة، لكن ليس كلها. الضحكات التي عادت كانت أقل عددًا، وأكثر حذرًا. الفرح، حين يعود بعد غياب طويل، يأتي بخطوات محسوبة، كأنه لا يريد أن يوقظ ذاكرة الخوف.

في المدرسة، لاحظت سميّة مقاعد فارغة. أسماء لم تُنادى في الطابور الصباحي. قيل إن أصحابها انتقلوا، أو سافروا، أو "تغيّرت ظروفهم". العبارة الأخيرة كانت الأكثر استخدامًا، لأنها لا تسأل، ولا تُفسّر.

البحر، الذي كان رمز العبور، صار أيضًا رمز الفقد. بعض الذين غادروا عبره لم يعودوا، وبعض الذين حلموا بالعودة لم يجدوا طريقًا. البحر لا يُميّز بين من يذهب ومن يعود، لكنه يحتفظ بأثر الجميع.

في المساء، بدأت المدينة تتحدث عنهم. لا بصوت عالٍ، ولا بندب. مجرد ذكر. الذكر هنا كان محاولة لإعادة إدخال الغائبين في النسيج العام، ولو بالكلمات. النسيان كان سيعني خسارة إضافية، لا أحد مستعد لها.

التحرير، في هذه المرحلة، لم يعد سؤالًا سياسيًا، بل سؤالًا إنسانيًا. ماذا نفعل بمن بقي؟ كيف نعيش مع من لم يعد؟ كيف نعيد بناء ما لا يمكن استعادته بالكامل؟ هذه الأسئلة لم تجد إجابات سريعة، لكنها بدأت تُطرح، وهذا وحده كان تقدّمًا.

المدينة لم تحتفل طويلًا. لم يكن لديها فائض فرح. لكنها امتلكت شيئًا أهم: القدرة على الحزن دون خوف. والحزن، حين يُسمَح له بالظهور، يكون أول خطوة نحو التعافي.

الفصل الحادي والعشرون

الأمن الذي يشبه الناس

لم يعد الأمن كلمة ثقيلة تُقال بحذر. عاد بهيئة أشخاص يعرفهم الناس، بوجوه لا تحتاج تعريفًا، وبحركات مألوفة لا تُربك المكان. هذا النوع من الأمن لا يفرض نفسه، بل يستقرّ، كما تستقر الأشياء التي تأتي في وقتها.

في الشوارع، ظهرت نقاط جديدة، لكنها لم تكن غريبة. رجال يقفون بلا استعراض، يحيّون المارّين، يسألون بلهجة قريبة، ويتركون الناس يمرّون دون أن يشعروا بأنهم متّهمون. الفارق لم يكن في الزيّ فقط، بل في النبرة. النبرة التي تقول: نحن هنا معكم، لا فوقكم.

ندى لاحظت ذلك في أول يوم. لم تتوقّف طويلًا عند نقطة التفتيش، ولم تُسأل أسئلة زائدة. المشي عاد إلى طبيعته، والوجه لم يعد يحتاج إلى ضبط إضافي. هذا الإحساس البسيط—أن تُعامَل كإنسان لا كاحتمال—كان كافيًا لتغيير المزاج العام.

في السوق، عاد الصوت تدريجيًا. الباعة ينادون على بضاعتهم، والزبائن يتجادلون على الأسعار بلا خوف من سوء الفهم. النقاش، الذي كان خطرًا، عاد جزءًا من الحياة. الأمن، حين ينجح، يسمح بالاختلاف دون أن يحوّله إلى تهديد.

في المساجد، لم يعد هناك خطاب موجّه، ولا كلمات محمّلة. عاد الحديث عن الأخلاق اليومية، عن الجار، عن الصبر الذي لا يعني الصمت، وعن الطاعة التي لا تلغي العقل. البساطة هنا لم تكن تراجعًا، بل استعادة للتوازن.

الأطفال كانوا أول من اختبر التغيير. اللعب عاد إلى الشوارع، وإن بحذر في البداية. الضحك لم يكن مكتملًا، لكنه كان صادقًا. الكبار راقبوا ذلك من بعيد، وهم يعرفون أن الأمن الحقيقي يُقاس بقدرة الأطفال على الركض دون أن يُطلب منهم التوقّف.

المدينة، التي عاشت طويلًا تحت سلطة لا تشبهها، بدأت تتعرّف على نفسها من جديد. الأمن الذي يشبه الناس لا يحتاج إلى خطب، ولا إلى رايات. يكفي أن يكون حاضرًا عند الحاجة، وغائبًا حين لا يكون ضروريًا.

البحر، الذي شهد التحوّلات كلها، بدا كأنه يوافق أخيرًا. الصيادون عادوا بثقة أكبر، والميناء استعاد إيقاعه. الحركة هنا لم تكن تجارية فقط، بل نفسية. العودة إلى البحر كانت عودة إلى ما قبل الخوف.

لم يكن كل شيء مثاليًا. الجراح لم تُغلق، والذاكرة لم تُمحَ. لكن الفرق كان واضحًا: المدينة لم تعد تُدار بالخوف، بل بالثقة الحذرة. وهذه الثقة، مهما كانت بطيئة، كانت أساسًا لا يمكن الاستغناء عنه.

في تلك الأيام، بدأت المكلا تفهم أن الأمن ليس غياب الخطر فقط، بل حضور المعنى. وحين يحضر المعنى، يصبح العيش ممكنًا دون أن يكون مؤقتًا.

الفصل الثاني والعشرون

الأشياء التي لا تعود

لم تعد المدينة تتوقّع عودة كل شيء. هذا الفهم لم يأتِ دفعة واحدة، بل تسرّب بهدوء، كما تسرّبت الخسارات نفسها. بعض الأشياء، حين تضيع، لا تعود كما كانت، مهما تغيّرت الظروف. الاعتراف بذلك كان خطوة صعبة، لكنها ضرورية.

الوجوه التي غابت لم تعد تُنتظر عند الزوايا. الأسماء التي توقّفت عن الظهور في القوائم لم تعد تُبحث في الهواتف. الانتظار، الذي كان ثقيلًا، بدأ يتحوّل إلى ذكرى. الذكرى أقل إيلامًا من الانتظار، لأنها لا تعد بشيء.

ندى شعرت بهذا التحوّل حين أدركت أنها لم تعد تتوقّف عند كل فراغ. الفراغ صار جزءًا من المشهد، لا خللًا فيه. هذا القبول لم يكن نسيانًا، بل إعادة ترتيب للذاكرة. الذاكرة، حين تُنظَّم، تسمح بالعيش دون أن تُمحى.

في البيوت، تغيّرت الطقوس. بعض الأحاديث لم تعد تُفتح، ليس خوفًا، بل احترامًا لما لا يمكن إصلاحه. الأشياء التي لا تعود لا تحتاج شرحًا متكررًا، بل مساحة صامتة تُحترم فيها.

في الشوارع، بقيت آثار غير مرئية. أماكن يُتجنَّب المرور بها دون سبب واضح، ممرات لا تُستخدم كثيرًا، مقاعد لا يُجلس عليها طويلًا. هذه الآثار لم تكن تذكارات رسمية، لكنها كانت علامات شخصية لكل من عاش التجربة.

الأطفال، الذين كبروا بسرعة، لم يعرفوا بعض الأشياء أصلًا. ما لم يُعاش لا يُفتقَد بالطريقة نفسها. هذا الفارق بين الأجيال كان واضحًا، ومؤلمًا أحيانًا، لكنه كان أيضًا علامة على أن الزمن لا يتوقّف عند جرح واحد.

الأمن، الذي عاد بوجوه مألوفة، لم يكن قادرًا على إعادة ما فُقِد. دوره لم يكن الإصلاح الكامل، بل حماية المساحة التي يمكن أن تُبنى من جديد. البناء، حين يأتي بعد الفقد، يكون أبطأ، لكنه أكثر وعيًا.

البحر ظلّ شاهدًا على ما لا يعود. أمواجه تمحو آثار الأقدام بسرعة، لكنها لا تمحو الذاكرة. الذاكرة هنا لم تكن حزنًا دائمًا، بل تذكيرًا بأن المدينة عاشت، وتأثّرت، ثم اختارت أن تستمر.

الأشياء التي لا تعود لم تكن فشلًا. كانت ثمنًا. والثمن، حين يُفهم، لا يُمجَّد ولا يُنكَر، بل يُحمَل بحذر. المدينة تعلّمت أن تحمل ما لا يمكن تغييره، دون أن تسمح له بأن يمنعها من الحركة.

في هذا الفهم الهادئ، بدأت المكلا تهيّأ لخطوتها الأخيرة: أن ترى نفسها كما هي، لا كما كانت، ولا كما فُرض عليها أن تكون.

الفصل الثالث والعشرون

المدينة التي نجت

لم تنجُ المكلا لأنها كانت أقوى من غيرها، ولا لأنها امتلكت وصفة سحرية للعبور. نجت لأنها لم تتخلَّ عن نفسها بالكامل، حتى في أكثر لحظاتها هشاشة. النجاة هنا لم تكن حدثًا، بل مسارًا طويلًا من التكيّف دون الذوبان.

المدينة التي خرجت من التجربة لم تكن هي نفسها التي دخلتها. شيء ما تغيّر في نظرتها إلى ذاتها، وفي علاقتها بالزمن. لم تعد تثق بسهولة، لكنها لم تعد خائفة كما كانت. هذا التوازن الجديد لم يكن مثاليًا، لكنه كان حقيقيًا.

في الشوارع، عاد الإيقاع ببطء. الناس يعرفون الآن أن العادي ليس مضمونًا، وأن الاستقرار ليس حالة دائمة. هذا الوعي لم يحوّلهم إلى متشائمين، بل إلى أكثر انتباهًا. الانتباه، بعد كل ما حدث، صار شكلًا من أشكال الحكمة.

ندى مشت قرب البحر كما كانت تفعل في الماضي، لكن بخطوات مختلفة. لم تعد تبحث عن الطمأنينة فيه، بل عن التذكير. البحر لا ينقذ، ولا يخذل. هو فقط موجود. وجوده المستمر كان درسًا كافيًا.

النساء، اللواتي حملن المدينة في صمتها، عدن إلى الواجهة دون إعلان. لم يطلبن اعترافًا، ولم يكتبن شعارات. أثرهن كان في الاستمرار، في الحفاظ على التفاصيل التي تجعل الحياة ممكنة: بيت يُدار، ذاكرة تُروى، طفل يُربّى دون خوف كامل.

الأمن، الذي استقرّ بوجوه مألوفة، لم يعد محور الحديث اليومي. وهذا كان نجاحه الحقيقي. حين يتوقّف الأمن عن أن يكون قصة، ويصير خلفية، يكون قد أدّى دوره.

المدينة لم تُنقِّ نفسها من الماضي، ولم تُجمِّله. تركته حيث هو، كطبقة لا يمكن محوها. الذاكرة، حين تُحترَم، لا تعيق الحركة. بل تمنحها عمقًا.

في المقاهي، عاد النقاش، لكن بنبرة مختلفة. الناس يتحدثون أكثر، ويصمتون حين يلزم الصمت. السؤال عاد، لكن بحذر. الحذر هنا لم يكن خوفًا، بل معرفة بأن الكلمات، حين تُقال، تترك أثرًا.

المكلا، في هذه اللحظة، لم تكن مدينة منتصرة، ولا مدينة منكوبة. كانت مدينة نجت. والنجاة، في زمن كهذا، ليست أمرًا بسيطًا. النجاة تعني أن تستمر دون أن تفقد قدرتك على الإحساس، ودون أن تتحوّل إلى نسخة صلبة لا تنكسر، لكنها لا تحيا.

البحر، في نهاية كل شيء، ظلّ هناك. يتذكّر كل من مرّ، وكل من غاب، وكل من عاد. لا يحتفظ بالأسماء، لكنه يحتفظ بالإيقاع. والمكلا، التي تعلّمت أن تصغي إليه من جديد، عرفت أن القصص لا تنتهي حين تُروى، بل حين تُنسى.

وهذه المدينة، مهما تغيّرت، قرّرت ألا تنسى.

شكر وتقدير

يتقدّم المؤلف بخالص الشكر والتقدير إلى

الأستاذ صالح أبوعوذل، رئيس

مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات،

تقديرًا لدوره المحوري وجهوده الكبيرة في إخراج هذه الرواية بصيغتها النهائية،

وما قدّمه من دعم فكري وتحريري أسهم في بلورة العمل على النحو الذي ظهر به.

من نحن

مؤسسة

اليوم الثامن

alyoum8.net

للإعلام والدراسات

منظمة بحثية وإعلامية مستقلة، تأسست بموجب قانون الجمعيات والمؤسسات الأهلية رقم (1) لعام 2001م ولائحته التنفيذية الصادرة بقرار رئيس مجلس الوزراء رقم (129) لسنة 2004. تحمل المؤسسة ترخيص رقم (0693) من مكتب الشؤون الاجتماعية في العاصمة عدن، وتتمتع بشخصية اعتبارية وذمة مالية مستقلة، حيث تعمل في مجالات الإعلام والتنمية والمجتمع والإنسانية، دون السعي لتحقيق الربح التجاري.

منذ تأسيسها في 13 أكتوبر 2016، تسعى المؤسسة إلى تقديم تغطية شاملة وفورية لأهم الأحداث والآراء السياسية، بالإضافة إلى إجراء بحوث ودراسات تتناول القضايا المحلية والإقليمية، بما في ذلك التحديات الاستراتيجية في الشرق الأوسط والقرن الأفريقي.

رؤية المؤسسة

تسعى المؤسسة إلى التميز والريادة في المعايير الإعلامية، مع الالتزام بالدقة العالية في البحث العلمي القائم على مصادر موثوقة.

أهداف المؤسسة

١. تعزيز الوعي الإعلامي: بناء وعي إعلامي ديمقراطي يسعى لتمكين المجتمع.
٢. تغطية الأحداث: تقديم تغطية احترافية وحيادية للأحداث في اليمن.
٣. تعزيز المشاركة: تشجيع الجمهور على المشاركة من خلال الصحافة العامة والإعلام البديل.
٤. دعم العمل الإعلامي: إبراز أهمية العمل الإعلامي الديمقراطي لدعم السلام.
٥. توفير منبر للحوار: تعزيز الشراكة مع مراكز صنع القرار.
٦. بناء القدرات: تطوير مهارات الإعلاميين والمواطنين الصحفيين.
٧. تنظيم الفعاليات: إقامة مؤتمرات وورش عمل تدريبية في مجال الإعلام.
٨. التشبيك: التعاون مع المؤسسات الإعلامية محليًا وعربيًا ودوليًا.
٩. تعزيز الديمقراطية: تعزيز أفكار الديمقراطية من خلال التقارير والتحقيقات.

الهيكل التنظيمي

- الهيئة الإدارية
- الهيئة التنفيذية
- فريق العمل الميداني

الهيكل التنظيمي

أقسام المؤسسة

١. قسم الصحافة والإعلام السياسية والاجتماعية
٢. قسم الدراسات والبحوث
٣. قسم الترجمة والنشر والتوثيق
٤. قسم استطلاعات الرأي
٥. قسم التدريب والتأهيل
٦. قسم البرامج والإنتاج

تضم المؤسسة **فريقًا أكاديميًا متخصصًا في الإعلام والبحوث، مما يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة.**

العاصمة عدن
البريقة - مدينة إنماء
alyoum8th@gmail.com

د. صبري عفيف

أكاديمي وباحث سياسي وأدبي، حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب من جامعة عدن. يشغل حاليًا منصب نائب رئيس مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات، والمشرف العام على مجلة بريم الصادرة عن المؤسسة. بدأ مسيرته البحثية ضمن مؤسسة اليوم الثامن عام 2021م، وتدرّج في عدد من المواقع القيادية، من بينها المدير التنفيذي للمؤسسة، قبل أن يتولى رئاسة تحرير مجلة بريم. قدّم خلال مسيرته عددًا من الدراسات والأبحاث في القضايا السياسية والاجتماعية والأمنية والأدبية. تمثّل هذه الرواية باكورة أعماله السردية، وتجربة أدبية تستلهم المقاربة الإنسانية والتحليلية التي ميّزت أعماله البحثية.